

دور العلامة في التحقيق الجنائي

فيلم جريمة في قطار الشرق السريع أنموذجا (مقاربة سيميوجنائية)

Investigating The Role of Sign in Criminal Investigation from a Forensic Semiotics Approach:
The Case of "Murder on the Orient Express" Movie

ابتسام بورشاق، د. أسماء حمائدة

¹ جامعة 08 ماي 1945 قالمة، bourechak.ibtissem@univ-guelma.dz² جامعة 08 ماي 1945 قالمة، hamaidia.asma@univ-guelma.dz

مختبر بحث الدراسات اللغوية والأدبية، جامعة 08 ماي 1945، قالمة

تاريخ الاستلام: 2024/07/30 تاريخ القبول: 2024/10/02 تاريخ النشر: 2024/12/26

الملخص:

تعد المقاربة السيميائية من بين أكثر المقاربات استجابة لنظرية التداخل المعرفي، بوصفها ذلك الفرع من علم اللغة الذي يستعير أدواته من علوم وميادين مختلفة، ما حوّلها أن تشكّل طرفا في العديد من التخصصات البينية الناشئة على غرار تخصص السيميائيات القضائية الذي يسعى الباحث فيه إلى بيان أهمية استثمار النظريات والأدوات السيميائية لمعالجة العديد من القضايا القانونية، خاصة تلك المتعلقة بالميدان الجنائي أين يستخدم المنهج السيميائي في حل ألغاز الجرائم التي تؤدي العلامة دورا في نسج تفاصيلها، أو أن تكون دليلا يشير إلى هوية فاعلها.

وعليه، تسعى هذه الورقة البحثية في جانبها النظري إلى إمطة اللثام عن تخصص السيميائيات الجنائية وبيان أهم مفاهيمه ومجالاته، معززة بجانبها التطبيقي الذي نروم من خلاله اختبار مدى نجاعة وفاعلية تحليل العلامة السيميائية في الكشف عن ملابس الجريمة عبر دراسة سيميوجنائية لبعض مشاهد فيلم الغموض والجريمة جريمة في قطار الشرق السريع التي تضمنت بصمات إشارية أسهمت في حل لغز هذه الجريمة.

الكلمات المفتاحية: العلامة؛ الجريمة؛ اللسانيات الجنائية؛ السيميائيات القانونية؛ السيميائيات الجنائية.

Abstract :

The semiotics approach is one of the most responsive approaches to the theory of cognitive interference. As a branch of language science, it uses tools from different sciences and fields. It has become an integral part of many new specialties as that of legal semiotics where the researcher seeks to prove the importance of delving into the world of semiotic theories and tools to address many judicial issues, especially those related to the criminal field where the semiotic approach is used to solve mysterious crimes. Therefore, signs play a significant role in revealing crime details as they can be used as an evidence pointing to the identity of the doer.

This study seeks is rooted upon forensic semiotics foundations with the aim to unveil its important concepts and areas. To achieve the study objectives, some scenes from the movie “*Murder on the Orient Express*” were selected to test the extent of semiotic sign efficiency to reveal some crime details.

Key Words : Sign ; Crime ; Forensic Linguistics ; Legal Semiotics ; Forensic Semiotics.

المؤلف المرسل: ابتسام بورشاق، bourechak.ibtissem@univ-guelma.dz

مقدمة:

أدى الانفتاح الإستمولوجي الذي أسفرت عنه الثورة المعلوماتية خلال النصف الثاني من القرن العشرين إلى ميلاد العديد من الدراسات البينية، التي تجمع تخصصين أو أكثر، بحيث ينهل كلّ تخصص من أفكار ونتائج الآخر على الصعيدين: النظري والإجرائي، في محاولة لتجاوز الحدود المرسومة بين العلوم، ومن ثم استثمار هذا التجاوز في اقتراح أو تقديم حلول حول العديد من القضايا والمسائل التي قد تعجز نظريات وأدوات تخصص واحد عن إيجاد حلول لها، ولم تكن اللسانيات بشتى فروعها ومقارباتها ببعيدة عن هذا التداخل المعرفي، حيث

ظهرت في الساحة العلمية العديد من التخصصات البينية التي تشكل اللغة أحد أقطابها، على غرار "اللسانيات القانونية" (Legal Linguistics) التي يسعى الباحث فيها إلى استثمار نظريات ونتائج علم اللغة لخدمة الميدان القانوني، من تحليل انطلاقا "لغة القانون" (Language of the Law) المتمثلة في "لغة المؤلفين القانونيين والمشرعين (القوانين والأنظمة) والقضاة والإداريين، وكذلك المحامين"¹.

وقد اهتمت في أحد فروعها الموسوم بـ: "اللسانيات الجنائية" (Forensic Linguistics) بتطبيق آليات التحليل اللساني على الخطاب الجنائي، كخطابات المتهمين أثناء عملية الاستجواب، ورسائل ومكالمات التهديد، والابتزاز والاستدراج، ومنشورات السبِّ والشتم والقذف وغيرها من الجرائم اللغوية² أو الجرائم التي تعتمد اللغة وسيلة لها، وتتبنى هذه المقاربة على فكرة مفادها أنّ لكل مشارك في العملية التواصلية بصمته الصوتية، واختياراته الخاصة في تركيب الجمل، وكذلك إستعاراته التي يحيا ويتواصل بها، ما يولّد بصمته اللغوية التي قد تعادل في دقّتها -لولا تغيّرها عبر الزمن- بصمات يديه وأصابعه، والتي يمكن أن تستحيل دليلا جنائيا يساهم في إدانته بجرم ما، أو تبرئته من تهمة منسوبة إليه.

ولمّا كان التّواصل لفظا وإشارة استطاعت الأبحاث المتعلّقة بالبصمة الإشاريّة أن تحصل هي الأخرى على تأشيرة عبور للميدان القضائي، حيث أبانت نتائج التّحقيقات الجنائيّة بين الماضي والحاضر، وفي قضايا كثيرة، عن أمارات تثبت حاجة الميدان الجنائي للاستعانة بأدوات المقاربة السيميائية في حلّ ملابسات العديد من الجرائم وألغازها التي تؤدّي الإشارة دورا مهمّا في حياكة تفاصيلها، ما جعل تخصص السيميائيات الجنائية يطفو هو الآخر على سطح الدراسات البينية، ليحاول على غرار هذا النوع من الدراسات إثبات جدوى التبادل المعرفي بين ما هو سيميائي وما هو قضائي.

وعلى الرغم من ذلك لاتزال الأبحاث المكرّسة للسانيات القانونية قليلة في الساحة البحثية العالمية، وهي أقل من ذلك بالنسبة للسميائيات الجنائية، أمّا في عالمنا العربي وفي حدود بحثنا- فالأبحاث السيميائية الجنائية تكاد تكون منعدمة، ومن هنا تتجلى أهمية هذه الدراسة التي تسعى في جانبها النظري إلى تسليط الضوء على هذا التخصص الناشئ، عبر الوقوف عند أبرز مفاهيمه وحدوده، كما تسعى في جانبها التطبيقي إلى اختبار مدى نجاعة أدوات المقاربة السيميائية في حلّ ملابسات الجريمة، والكشف عن أدقّ تفاصيلها.

بناءً على هذا، تحاول هذه الورقة البحثية الإجابة عن سؤال مركزي: كيف تسهم السيميائيات الجنائية في فكّ لغز الجريمة؟

وتقتضي هذه الإشكالية لزوما الارتكاز إلى مادة للتطبيق، لذا ارتأينا اختيار فيلم **جريمة في قطار الشرق السريع** (Murder on The Orient Express) للاعتبارات الآتية:

- يعرض فيلم **جريمة في قطار الشرق** الذي-على الرغم من نجاحه- تعرّض لانتقادات كثيرة على المستوى الفني، عملية التحقيق والاستجواب بكل تفاصيلها ويسلط الضوء على ذكاء وفطنة المحقق في كل مراحل التحقيق وردود فعل المتهمين أثناء عملية الاستجواب.
- الدور الذي تؤدّيه العلامة بشتى تجلياتها في حياكة تفاصيل جريمة قطار الشرق، ومساهمتها في فك شيفراتها.
- اعتماد المحقق أسلوب الحفر في الأنساق التي تنتجها العلامة ما يتوافق وطبيعة المنهج السيميائي.

كما نروم من خلال تحليل بعض مشاهد هذا الفيلم -بالاستناد إلى المقاربة السيميوجنائية- تحقيق الأهداف الآتية:

- بيان جدوى استخدام التحليل السيميائي في الميدان القضائي.

-إبراز دور العلامة في كشف تفاصيل الجريمة.

-لفت الانتباه إلى تخصص السيميائيات القضائية، وبيان أهمية الاعتماد عليه في حل ألغاز الجرائم، خاصة تلك التي تؤدي فيها العلامة دورا رئيسا.

1. العلامة لغة الجريمة:

لا يخفى على الباحث في تاريخ اللغة أنّ العلامة غير اللسانية أو الإشاريّة كانت أول وسيلة اعتمدها الإنسان البدائيّ قبل أن يتبنّى اللغة اللفظية وسيلة يتواصل ويتفاعل بها، بيد أن هذه اللغة التي عدّها دو سوسير "نظام علامات يعبر بها عن أفكار"³، ليست سوى شكلا آخر من أشكال الترميز في أعلى مستوياته، والتي تعكس تطوّر هذا الكائن الاجتماعي وتمكّنه من تطوير أدواته التواصلية، بحيث يستعين بها على التأقلم والتفاعل مع المجتمع الذي ينتمي إليه، فالألفاظ والعبارات ليست إلّا قوالب رمزية تحمل أفكاره وتعبّر عن رغباته وانفعالاته. هذا الاستخدام للرموز اللسانية لم يغن المخاطب عن الاستعانة بالعلامات غير اللفظية لتحقيق المرجو من العملية التواصلية، وظلّ توظيف الإشارة سمة تميّز التواصل الإنساني، حيث "يتواصل البشر أكثر من ثلثي أفكارهم ومشاعرهم من خلال الجسد وليس من خلال اللغة الصوتية، وذلك باستخدام ما يصل إلى 700000 إشارة جسدية، بما في ذلك 1000 وضعية مختلفة، و5000 إيماة يدوية، وأكثر من 250000 تعبير وجه"⁴. وإضافة إلى الإشارات الجسدية هنالك العديد من العلامات التي تستخدم في العملية التواصلية، وتتعاقد مع العلامات اللفظية لإنتاج المعنى، كالصور الفوتوغرافية واللوحات الفنية والإشهارية وإشارات المرور والوشوم واللباس وغير ذلك. ولا تكتسب العلامة-سواء أكانت لغوية أم غير لغوية- مفهوما أو تنتج معنى بمعزل عن النسق الذي تنتمي إليه، والذي يتجلى بفعل مجموع اختيارات تجري على مستوى ذهن مستعملها، كما لا تكتمل إحداثيات المعنى الذي تنتجه هذه العلامات إلّا إذا تتبعنا سيروراتها الدلالية ووقفنا عند ما ينتجه السيميوزيس الخاص بها

من تسنينات ثقافية، إنتاج السيميوزيس لهذه التسنينات لا يتم بمعزل عن المجتمع الذي يحتضن هذه العلامة، ولأننا "تحيا داخل أكوان من العلامات الاجتماعية، فتشدنا إليها لكن دون أن نفكر فيها"⁵ فنحن لا ننفك عن التواصل بها على اختلاف طبقاتنا، واهتماماتنا، والمجالات التي ننتمي إليها.

وتُعنى العلامة على اختلاف تجلياتها الشكلية بكل ما وُجد بالنيابة عن شيء آخر بفعل الطبيعة أو بفعل التواصل والاصطلاح، فعلى سبيل المثال يوظف الشعراء والروائيون الرّموز في أعمالهم الإبداعية لتشتغل بوصفها رسائل مشفرة تحمل في طياتها خطابات مدججة بالمعاني والإيحاءات، ويستخدم قانون المرور الإشارات والعلامات بدل النصوص اللسانية لتيسير عملية السير وتنظيمها، ويستعين رجال الدين والساسة والمثقفون وغيرهم من المؤثرين برموز وإشارات تساعدهم في عملية التأثير على جماهيرهم، وللصراع الطبقي علامات تمثله وتعبر عن أيديولوجياته، فكما للطبقة البورجوازية طقوسها الخاصة في انتقاء الأزياء وأسلوبها في تناول الطعام، للطبقة الكادحة أيضا علاماتها التي تستحيل بصمة تفصح عن هوية المنتمين إليها.

هذه الدلالة غير المباشرة للعلامة جعلتها ترتبط ارتباطا وثيقا بعملية الكذب والخداع، فالإيحاءات الجسدية-على سبيل المثال-قد تفصح في الكثير من الأحيان عما أضمره الجانب اللساني من الخطاب، وكما قد تكون حجة تؤكد صدق المخاطب، يمكن أن تغد ما أنتجه خطابه من معان ودلالات، هذا ما يحيلنا إلى مقولة جيرزي بيلك (Jerzy Pelc): "أولئك الذين يكذبون يستخدمون الإشارات دائما، لا يوجد كذب دون استخدام العلامات، الكذب هو نشاط سيميائي له مرسل ومستقبل وبالتالي هو نشاط يحدث في المجتمع"⁶.

ولا تقتصر علامات الكذب والخداع على الإشارات والإيماءات الجسدية غير الواعية أو اللامقصودة والتي قد تستحيل نيرانا صديقة تناقض قصد المتكلم من الخطاب، وتعيد شرط النزاهة إلى فعله الكلامي، فمن الدارج أيضا أن يوظف المخاطب العلامة لمغالطة المتلقي أو التأثير عليه ودفعه على القيام بسلوك معين أو تبني فكرة ما، تماما مثلما نلاحظه في العلامات الموظفة في الخطابات الإشهارية التي تؤدي دورا مهما في توجيه السلوك الاستهلاكي للفئة المستهدفة من الجمهور، وكذلك علامات الخطاب السياسي التي تعمل على تعزيز شعور الانتماء لتيار أو إيديولوجية معينة، والشيء ذاته بالنسبة لخطابات العنف والكراهية حين يكون للعلامة دور في تحريض المخاطب على ارتكاب جرائم أو الانخراط في منظمات مشبوهة أو القيام بأعمال تخريبية وما إلى ذلك، فكثيرا ما يستخدم المجرمون والخارجون عن القانون وأفراد العصابات العلامات على اختلافها وتنوعها كشفيرات يتواصلون بها، لتشكل بذلك لغة خاصة بهم، ووعاءهم الذي يحمل انتماءاتهم، معتقداتهم وأيديولوجياتهم.

بل ومن الممكن أن نذهب إلى أبعد من ذلك، فأحيانا يؤدي الرمز دورا بالغ الأهمية في دفع من لديهم قابلية للانحراف الفكري والسلوكي للانضمام إلى بعض العصابات، أو تبني أفكار ومبادئ تيارات متطرفة ومنظمات إرهابية معينة، فانطلاقا من دراساته الميدانية التي أجراها على عصابات تورنتو يقول السيميائي الإيطالي مارسيل دانيسي Marcel Danesi "...من هذه التجارب أصبح واضحا لي أن العديد من المراهقين كانوا متحمسين للانضمام إلى الجماعات الإجرامية بسبب القوة العاطفية للرموز، والتي سمحت لهم ببناء هوية جديدة واكتساب شعور بالانتماء إلى شيء لئيم"⁷.

وفي إطار نظريته التكوينية لتحليل السلوك الإجرامي، استنبط لومبروزو Cesare Lombroso (1835-1909) الصفات النفسية للمجرمين انطلاقا من الوشوم المتواجدة على

أجساد هؤلاء فاستخلص منها أن المجرم كائن "ضعيف الإحساس بالألم فظّ غليظ القلب، كما أنّه حادّ المزاج، ميّت الشّعور، نظراته قاسية، قليل الشعور بالخلج وتأنيب الضمير، لا يقدر عواقب الأمور، ميّال إلى المقامرة وتعاطي المشروبات الكحولية، وهو ما يجعله يقدم على ارتكاب الجرائم دون مبالاة"⁸.

حيث يعدّ الوشم في معظم المجتمعات علامة دالة على الانحراف السلوكي، فالعديد من الوشوم تعكس رسومها ميولا إجرامية لأصحابها، وتقص عن هوسهم بالانتقام أو رفضهم للعادات والقيم التي رسّختها مجتمعاتهم، لتنشأ بذلك مجتمعاتهم الخاصة بهم، وقد أسّس "المكتب الفيدرالي FBI برنامجا للتعرف على الوشوم الموجودة على أجسام المجرمين لمعرفة لأيّ الجماعات أو العصابات الإجرامية ينتمون"⁹.

كما تعدّ علامة اللباس لغة يستخدمها بعض المتطرّفين وأفراد العصابات للتعبير عن انتماءاتهم والاعتزاز بها. ففي الجزائر مثلا تعدّ البدلة الرياضية "لاكوست" (La Coste) رمزا للتمرد والانحراف عن الجماعة (هذه نظرة اجتماعية وليست حقيقة مطلقة فينبغي التنبيه إلى ذلك)، حيث يكثر ارتداؤها عند فئة من المجتمع تسمّى: "أصحاب الرجلّة"، وهي فئة تتميز بأفكارها المتعصبة وسلوكها المنحرف المعادي للقيم الاجتماعية، وإذا ما أراد شخص لا ينتمي إلى هذه الفئة، طبيبا كان أو مهندسا أو أستاذا جامعا أو غيرهم ممّن لا ينتمون لذات الطبقة أن يرتدي هذه البدلة، ففي غالب الظنّ سيتعرّض إلى نوع من المساءلة وعدم التقبل من قبل أفراد طبقته أو فئته التي ينتمي إليها، سواء أكان هذا الرفض مباشرا أم غير مباشر، لا شيء إلّا لأنّ المجتمع الجزائري كغيره من المجتمعات يعترف بلغويّة الأزياء ويخضع لقوانينها التخاطبية.

ويمكن للأداء اللغوي أن يكون علامة تشير إلى الكذب والخداع، وذلك لارتباطه بالعمليات الذهنية التي تجري على مستوى الجهاز العصبي للمتكلّم، لأنّ الكلام في أحد جوانبه انعكاس لوضعيته النفسية، إذ كلّما تغيّرت تغيّر معها أسلوب أدائه للغة، سواء أكان واعياً بهذا التغيير أم غير واع به، ويتجلّى هذا واضحاً على مستوى اختياراته اللغوية: الصوتية، والصرفية، والنحوية، والدلالية، فضمن أبحاثه المكرّسة للعثور عن وسائل وتقنيات كشف الكذب قام عالم النفس الاجتماعي **جيمس بينبكر** James Pennebaker بتطوير طريقة أطلق عليها "الاستقصاء اللغوي وعدد الكلمات (liwc)" التي تسمح للمحقّقين بغربة أكاذيب المتّهمين أثناء عملية الاستجواب من خلال ملاحظة إشارات نحوية ومعجميّة محدّدة في أطراف المحادثة، وقد وجد أن الخداع يستلزم في كثير من الأحيان الاستخدام اللاواعي لأنواع مختلفة من العلامات، على سبيل المثال، استخدام عدد أقل من ضمائر المتكلم (أنا، نحن)، مما يسمح للكاذبين بإبعاد أنفسهم عن إفاداتهم¹⁰.

فالكذب ليس إلّا استخداماً للعلامة بهدف المغالطة والاحتيال وليست الإشارة -سواء أكانت مقصودة أم غير مقصودة- في خطاب الكاذب إلّا بصمة تدينه وتثبت احتياله، حيث يرى **أمبرتو إيكو** Umberto Eco أنه "في كل مرة يكون هناك احتمال للكذب هناك وظيفة إشارة"¹¹. هذا الارتباط للعلامات بالكذب والخداع أسّس لعملية التبادل المعرفي بين المقاربة السيميائية والميدان القضائي، وأسفر عنها ميلاد تخصص بيني حديث النشأة أطلق عليه "السيميائيات الجنائية". فما مفهومها وما مجالاتها؟ وماهي أهم أدواتها؟

2. السيميائية الجنائية المجال والمفهوم:

1.2. السيميائية والقانون:

أعلنت المقاربة السيميائية انصياحها للفكر الإبستمولوجي واستعدادها للتبادل المعرفي منذ نشأتها الأولى، فاشتغالها على العلامة التي يستدعي تحليلها استعارة أدوات من معارف

عدّة (المنطق، السوسولوجيا، الأنثربولوجيا، التحليل النفسي... الخ)، خوّل لها أن تشكّل طرفاً أساسياً في العديد من التخصصات البينة، على غرار السيميائيات النفسية، والسيميائيات الاجتماعية، والسيميائيات الحيوية... الخ، وليس القانون بوصفه "مجموعة القواعد الملزمة التي تنظم علاقات الأشخاص في المجتمع"¹²، بالبعد عن الاستفادة والاستثمار في أدواتها ونظرياتها، هذا بالضبط ما خلصت إليه الدراسات السيميائية القانونية عند ظهورها في أواخر القرن الماضي، والتي تمحورت أبحاثها حول الأبعاد الثلاثة للسمياء -كما حددها شارل موريس-، وعلاقتها بالمنطق القانوني، فقد شكّل علم التراكيب القانوني، والدلالات القانونية، والتداوليات القانونية ثلاثة مستويات تسعى لاختبار أدواتها في مقاربة الخطاب القانوني والحفر في بنياته اللغوية، لتندرج بذلك ضمن مجال السيميائيات القانونية¹³.

وقد اختتم بول ديبوشي Paul Dubouchet مقالته الموسومة بـ **المثلث السيميائي والقانون** ضمن كتابه **السيميائية القانونية، مقدمة في علم القانون** (1990)، بقوله: "إن السيميائيات القانونية ليست تعبيراً فجاً، يمكن أن نتحدّث عن المثلث السيميائي، ويمكن أيضاً أن نعالج علاقات القانون مع كلّ فرع من فروع السيمياء"¹⁴. وعلى الرغم من ذلك، لا تزال الأبحاث المكرّسة لهذا المجال قليلة جداً، وتعدّ "المجلة الدولية لسيميائيات القانون" (International Journal for The Semiotics of Law) الوحيدة في العالم التي تركز أبحاثها حول علاقة التبادل المعرفي بين السيمياء والقانون، حيث قامت بنشر العديد من الأبحاث والدراسات التي تناولت المقاربات: (السيميائية التداولية، والسيميائية السردية، والسيميائية النفسية، والسيميائية الاجتماعية...) وعلاقتها بالقانون، ودراسات سيميائية للغة القانونية، وأخرى حول الطقوس الرمزية للقضاء وقاعات المحاكم، كما نشرت بعض

الدراسات السيميائية القانونية لبرامج تلفزيونية، والعديد من الأبحاث التي تعتبر نماذج مفيدة حول البحث السيميائي-القانوني.

ولم تقتصر الدراسات السيميوجانونية على تحليل لغات القانون وطقوس قاعات المحاكم، فقد ظهرت مؤخرا عدد من الأبحاث التي تتناول ولوج المقاربة السيميائية للميدان القضائي، من خلال محاولة استثمار نظرياتها وأدواتها التحليلية في ميدان التحقيق والإثبات الجنائي، وذلك عبر تحليل خطابات المتهمين أثناء عملية الاستجواب، والعمل على لقف البصمة الإشارية فيها، وكذلك الربط بين الرموز والعلامات التي يخلفها المجرمون في مسرح الجريمة، والتي قد تشكل على تراكمها مجموعة قرائن يمكن أن تتطور إلى أدلة مساعدة في نفي أو إثبات تهمة معينة، ما يجعلنا أمام تخصص ناشئ -أدرجه البعض ضمن ميدان تحليل الخطاب وهو أحد فروع اللسانيات الجنائية- اصطُح عليه بـ: "السيميائيات الجنائية" حيث يُعنى بالتحليل السيميائي للخطاب الجنائي منذ الاتصال الأول بخدمة الطوارئ إلى غاية إثبات تهمة ما أو نفيها.

2.2. السيميائيات الجنائية:

يمكن أن نعتبر قضية الأستاذ الجامعي **دايفيد بيلر** David Biller الذي قُتل في مكتبه يوم الثامن عشر من يناير عام واحد وألفين للميلاد، سببا بارزا في نشأة السيميائيات الجنائية، على يد مؤسسها **مارسيل دانيسي** Marcel Danesi الذي إكتشف بعد ثلاثة عشر عاما من وقوع هذه الجريمة أنّ **بيلر** قد تتبأ بكيفية وفاته، وهذا بعد دراسة سيميائية أجراها على لوحاته الفنية التي طغا عليها الجانبان: الدموي والمظلم، يقول **دانيسي** "في النهاية شعرت بالذهول لأنني استطعت أن أستخلص من نصوص **بيلر** المرئية هاجسا شريرا لكيفية وفاته، كما جعلتني أعيد التفكير في السيميائية كعلم تفسيري، قادتني التجربة إلى إقتراح فرع جديد من السيميائية والذي أسميه السيميائيات الجنائية"¹⁵. وقد دفعه هذا إلى كتابة مؤلفه

"علامات الجريمة: إدخال السيميائية الجنائية" (2014) كأول كتاب يتناول هذا المجال ويعنى بوصفه والتطرق إلى أهم مفاهيمه، كما قام أيضا بتأسيس مركز أبحاث في كلية فيكتوريا تحت مسمى (RUS) وتعني: "البحث في السيميائية الجنائية" (Research in Forensic Semiotics) وباشر في تدريس مقرر دراسي حول السيميائية الجنائية في الكلية ذاتها، وقد عبّر دانيسي عن دهشته حول قدرة الأدوات التحليلية للمقاربة السيميائية في الولوج إلى أغوار النفس البشرية قائلا: "حالة دافيد بيلر أذهلتني حقا، لقد جعلتني أشعر بالقلق من أنني يجب أن أكون حذرا للغاية بشأن كل ما أقوله وأكتبه، حيث يبدو أن التحليل السيميائي يغوص بعمق في النفس البشرية"¹⁶.

وفي محاولة منه لوضع السيميائية الجنائية ضمن إطارها المفاهيمي، ميّز دانيسي بين درجتين منها، مانحا إياها تعريفين يشكّلان على اختلافهما مفهوما شاملا لهذا المجال ورسمًا لحدوده النظرية والإجرائية.

1.2.2. السيميائية الجنائية من الدرجة الأولى (FS1):

تسعى هذه الدرجة من السيميائية الجنائية إلى "تقديم رؤى محدّدة حول الأدلة التي جمعها علماء الطب الشرعي لمساعدتهم على فك تشفيرها من منظور تكميلي ويمكنها أيضا أن تساعد المحققين على فهم كيفية استخدام تعابير الوجه والإيماءات واللغة وما إلى ذلك للتعرف على الخداع وتحديد الجناة"¹⁷. حيث يرى مارسيل دانيسي إمكانية الاستعانة بأدوات التحليل السيميائي لمعالجة بعض الأدلة على مستوى مسرح الجريمة، كشظايا الخشب والرمال وجزيئات الزجاج وطلاء الأظافر وغيرها من العلامات غير المباشرة، التي تستخدم كقرائن تخوّل لرجال التحقيق تفتيش المشتبه بهم، كما يمكن أن يستعان بنظريات المقاربة السيميائية في تحليل الخطابات الجنائية على مستوى غرف التحقيق، كخطابات المشتبه فيهم

أثناء استجوابهم، وخطابات المواجهة بين المتهمين والأطراف المعنيين بالقضية، وذلك عبر تحليل الإشارات الجسدية والإيماءات التي قد تشكل خطابات منافية ومفندة لاعتراقاتهم.

2.2.2. السيميائية الجنائية من الدرجة الثانية (FS2):

يرى **مارسيل دانيسي** أن "الطريقة الأساسية الثانية التي يمكن من خلالها استخدام السيميائية في دراسة الجريمة هي المساعدة في قياس العلاقة بين الجريمة والتصور الخيالي لها"¹⁸، حيث تتمحور هذه الدرجة من السيميائية الجنائية حول فكرة محاكاة الجريمة، والعلاقة بين الجريمة في الواقع والجريمة على شاشة التلفاز، وكيف تؤثر الثانية على الأولى، حيث يمكن أن تؤثر البرامج التلفزيونية وأفلام أو مسلسلات الجريمة والغموض على طريقة تفكير بعض المنحرفين أو الجماعات المتطرفة في مجتمع ما، فتجدهم يعبرون عن تأثرهم هذا بتقليد ومحاكاة أبطال هذه الأعمال في تصرفاتهم، وأزيائهم، وعباراتهم، وحتى كيفية ارتكابهم للجرائم، ويظهر ذلك من خلال الوشوم والألقاب التي يلقّبون بها أنفسهم أو يطلقونها على غيرهم. وعن علاقة الجريمة في الواقع بشاشة التلفاز، هنالك العديد من الأمثلة في واقعنا التي تدعم رؤية **دانيسي**، ولنا في الكولومبي **بابلو اسكوبار خافيريا** بارون المخدرات، ومؤسس منظمة **كارتل ميديلين للإجرام**، الملقب بملك الشر مثالا حيا على ذلك، فهو أحد أحب الشخصيات الإجرامية لدى أفراد العصابات والمجرمين ورمزا من رموز تجار المخدرات في شتى أنحاء العالم، حيث أدّت شاشة التلفزيون دورا كبيرا في التعريف به من خلال الأفلام والوثائقيات التي تتناول سيرته الذاتية وتفاصيل عملياته الإجرامية. كما تعدّ سلسلة **"الهروب من السجن" (Prison Break)** من أكثر المسلسلات التي تطرقت إلى فكرة علاقة الرمز والعلامة بالجريمة، وقد كان لهذه السلسلة تأثير بالغ في المشاهدين، لدرجة أنّ العديد من السجناء حول العالم حاولوا الفرار من سجونهم على طريقة **مايكل سكوفيلد** Michal Scofield بطل السلسلة. وعلى الرغم من ذلك ففكرة **مارسيل دانيسي** حول السيميائية

الجنائية من الدرجة الثانية يشوبها نوع من الغموض واللبس، فهي لا تتطرق بوضوح للكيفية التي يمكن أن تستثمر فيها السيميائية في مكافحة الجريمة إنطلاقاً من فكرة المحاكاة.

أما في أدبياتنا العلميّة العربيّة فالأبحاث السيميائية الجنائية تكاد تكون منعدمة، فيما عدا مقالة بعنوان "البصمة الإشارية دليلاً جنائياً" لصاحبها أسماء حمادية، التي تطرقت فيها للدور الذي يمكن أن تؤديه البصمة الإشارية في الكشف عن تفاصيل وملابسات الجريمة. وعلى قلة الأبحاث المكرّسة للسيميائيات الجنائية عند الغرب وندرتها في عالمنا العربي، تعد محاولة مارسيل دانيسي في هذا المجال عملاً تأسيسياً ومنطلقاً لكل باحث يروم اختبار نجاعة الأدوات السيميائية في الميدان الجنائي.

3. التحليل السيميوجنائي لفيلم جريمة في قطار الشرق السريع (Murder on The

(Orient Express

يشكل الفيلم وحدة تواصلية سمعية بصرية تتوالى فيها الصور في بضع أجزاء من الثانية؛ لتخلق بذلك عنصر الحركة الذي يتعاوض والإضافات الصوتية فينتج خطاباً محاكياً للخطاب الواقعي، ولأنّ الجريمة فعل مخالف للطبيعة البشرية، فهي أقرب في أحداثها وتفاصيلها إلى الخيال منها إلى الواقع، وهذا ما جعل السينما تحاكي في أفلامها العديد من الجرائم التي نشهدها في حياتنا اليومية، علاوة على ذلك هنالك العديد من الروايات والأفلام السينمائية التي تناولت قصصاً خيالية تدور أحداثها حول عالم الجريمة والتحقيق، والتي يمكن أن تؤثر في تفكير أصحاب الميول الإجرامي وتوجه أفعالهم، وتمدّ المحققين الجنائيين بالعديد من الأفكار حول الحيل التي يستخدمها المجرمون في حياكة خيوط جرائمهم بهدف الإفلات من العقاب، وهذا ما ينطبق على فيلم جريمة في قطار الشرق السريع الذي يحاكي

في جزء من أحداثه جريمة اختطاف وقتل هزّت الولايات المتحدة الأمريكية عام 1927 راح ضحيتها الابن الرضيع للطيار الأميركي الشهير تشارلز لنديبرغ Charles Lindbergh. نبذة عن الفيلم:

فيلم جريمة في قطار الشرق السريع هو الاقتباس السينمائي الرابع لرواية الكاتبة أجاثا كريستي "جريمة في قطار الشرق السريع"، تمّ عرضه سنة سبعة عشر وألفين من إخراج وبطولة كينيث برانه Kenneth Brannagh، وتدور أحداثه التي امتزج فيها الخيال بالواقع على متن قطار الشرق السريع الذي عدّ آنذاك أشهر قطار في العالم بوصفه رمزا من رموز الطبقة الأرستقراطية وكبار الساسة. يروي الفيلم قصة المحقّق هيركيول بوارو Hercule Poirot الذي سافر على متنه متّجها إلى لندن بعد أن أنهى مهمّة له في القدس الشريف، وفي اليوم الثاني من الرحلة، توقّف قطار الشرق على أراض يوغسلافية بسبب تراكم الثلوج، ليستيقظ بوارو في ليلة اليوم ذاته على أصوات غريبة تصدر من مقصورة رجل الأعمال راتشيت Ratchet وفي صبيحة اليوم التالي يستيقظ الجميع على وقع جريمة قتل راح ضحيتها هذا الأخير، ثم يباشر هيركيول بوارو عملية التحقيق التي اكتشف مع بدايتها أنّ الضحية كان يستخدم هوية مزيفة: فراتشيت ليس إلّا جون كاسيتي John Cassetti خاطف وقاتل الطفلة ديزي ارمسترونج Dizzy Armstrong، الجريمة التي أدت إلى إجهاض ووفاة والدتها وانتحار والدها حزنا عليهما، وأثناء تحقيقه مع الركاب الاتني عشر يلاحظ أنّ كلّ واحد من هؤلاء يتحرّى الكذب لإخفاء شيء ما، فيكتشف بعد ذلك أنّ هنالك صلة تربط كلّ واحد منهم بالضحية ديزي ليصل في نهاية المطاف إلى حلّ لغز هذه الجريمة التي شارك فيها جميع ركّاب قطار الشرق السريع ثارا لديزي ولأنفسهم وتحقيقا للعدالة التي عجز القضاء الأميركي على تحقيقها.

وقد تميّز هيركيول بوارو وهو بطل روايات أجاثا كريستي البوليسية، بذكائه الحاد وثقافته الواسعة وأسلوبه الممتع في الربط بين الأحداث وحلّ ألغاز الجرائم، فهو يعير اهتمامه لأدقّ التفاصيل التي قد تغيب عن ذهن المحقّق العادي، لذا فقد عدّ أنموذجاً ومثالاً أعلى لجميع المحققين. وفي هذه الدراسة سنحاول الوقوف عند استخدامه تحليل العلامة بأنواعها لأجل الوصول إلى حلّ لغز هذه الجريمة.

1.3. جدول إحصائي لأهم العلامات التي ساهمت في كشف الجريمة:

المشهد	الدليل (العلامة)	نوع العلامة	مساهمتها في حل القضية
التحقيق مع رجال الدين (الحاخام، الراهب، الإمام) في جريمة سرقة قطعة أثرية ثمينة من على حائط بكنيسة القيامة بالقدس الشريف.	الحذاء	لباس	ساهمت في نفي التهمة عن رجال الدين، وإثباتها على مفتش الشرطة.
استجواب سكرتير القتل (راتشيت).	إيماءات جسدية (خفض الرأس، وعدم ثبات حركة العينين، مع تجنّب النظر إلى وجه المحقّق أثناء إجابته على بعض الأسئلة)	علامة إشارية (كينية)	ساهمت في إثارة الشكوك حوله
فحص الجثة والأدوات التي وجدت على مسرح الجريمة.	منديل	لباس	كان علامة على أن القاتل قد يكون امرأة من طبقة ارسنقراطية.

التحقيق مع خادم (راتشيت)	عبارة "إن كنت سأترك شيئا غير سار على وسادتك فلن يكون خطابا"	علامة لغوية (رمزية)	ساهمت في الكشف عن كذب الخادم حول مرضه.
التحقيق مع المبشرة	-ضم اليدين -صلابة اليدين -عبارة "أحيانا ينشغل الرب".	-علامة إشارية -علامة إشارية -علامة لغوية (رمزية)	-ضم اليدين دلت على التوتر كما أثارت انتباه المحقق إلى العلامة الثانية "صلابة اليدين" -صلابة اليدين أثبتت أن المبشرة تمارس رياضة قتالية مما ساهم في الكشف عن مجموع التناقضات في شخصيتها -عبارة أثبتت عدم ثقتها الكاملة في العدالة الإلهية وهذا يتناقض ومهنة التبشير التي تستدعي إيماننا خالصا وثقة في عدالة الرب.
التحقيق مع البروفيسور	-الحقيقية -اللهجة	-لباس -علامة لغوية (رمزية).	-ساهم في الكشف عن كذبه بخصوص مهنته -ساهمت في الكشف عن كذبه بخصوص موطنه الأصلي.

التحقيق مع النبيلين (إيلينا وزوجها)	ثوب ذهبي	-لباس	-ساهمت في الكشف على أن إيلينا ذات علاقة مباشرة بالجريمة.
-------------------------------------	----------	-------	--

1.1.3. اللباس ودوره في الكشف عن ملابسات الجريمة:

اهتمّ رولان بارث بدراسة وتحليل مختلف الأنظمة الدالة وأولاًها عناية بالغة، بما في ذلك الأنظمة غير اللفظية قصدية كانت أم غير قصدية، محتكما في دراسته إلى عنصر الدلالة. وقد احتذى في أطروحته بالنظرية اللسانية السوسيرية مستعيراً ثنائياتها للحفر في مختلف الأنساق، فأَيّ نظام وإن لم يكن لغويا فمن المؤكّد أنّه سيشغل بوصفه كذلك، علاوة على ذلك فهو لن يعرّف عن نفسه إلا بواسطة اللغة، على اعتبار أن "اللسان هو مؤول كلّ الأنساق الأخرى لسانية كانت أم غير لسانية"¹⁹.

ويعدّ اللباس من أبرز الأنظمة التي اهتم بارث بالكشف عن أبعادها الدلالية والبحث عن التسينات الثقافية والنفسية والاجتماعية التي تقبع خلفها، معتبرا الممارسة الواقعية للباس الأقدر على تجسيد ثنائية (لسان، كلام) تجسيدا كاملا لأنّ "الفرق التقليدي بين اللسان والكلام موجود في اللباس المرتدى (أو الواقعي)"²⁰.

في المشهد الأول من "جريمة في قطار الشرق السريع" تمكّن المحقق هيركيول بوارو من فك لغز جريمة سرقة قطعة أثرية ثمينة من على حائط البراق، بواسطة علامة "الحذاء" فبعد أن أجرى تحليلا ميدانياً للبصمة الموجودة على التّحفة الأثرية استنتج أنها أثر "حذاء ذي نعل قوي أو ربما طويل" -يقول بوارو-، حيث شكلت علامة (الحذاء ذو النعل الخفيف) دالاً يحمل في طياته مدلول البساطة والفقر، وهي حالة اجتماعيّة يشترك فيها أغلب رجال الدّين من مختلف الأديان (الإسلام، المسيحية، اليهودية)، حيث أنتجت الأحذية التي يرتديها

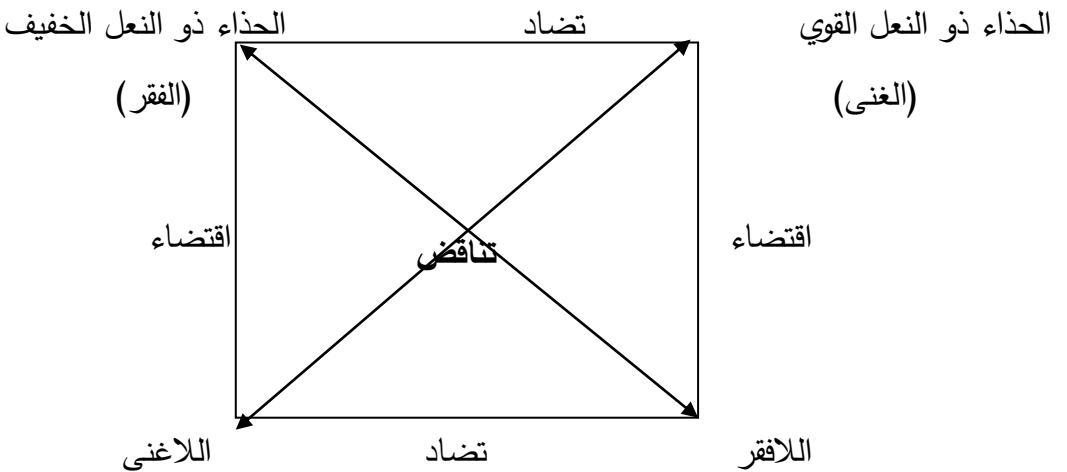
كلّ من (الإمام، والراهب، والحاخام) خطابا يثبت براءتهم من تهمة السرقة، فلغة اللباس تحتوي الكثير من التعارضات²¹ تعارض الأثواب والقطع "التفاصيل" التي يؤدي التنوع فيها إلى تغيير في المعنى "إذ لكل فئة عمرية، وطبقة اجتماعية، ومنظومة فكرية وعلمية وثقافية وحدات لباس تميّزها، ومن الوارد إذن أن يتغير خطاب المتكلم (المرتدي) بتغيّر إحدى الأنساق السابقة. وهذا ما بنى عليه هيركيول بوارو استنتاجه الذي أفضى إلى تبرئة رجال الدين من تهمة السرقة، لأنّ حالتهم الاجتماعية (البساطة والفقر) لها وحداتها الخاصة على محور الاختيار أو الغياب (حذاء بسيط، حذاء ذو نعل خفيف، حذاء غير ثمين، حذاء من ماركة غير معروفة...) وهي نوعية أحذية لا تتطابق مع بصمة الحذاء الموجودة على الحائط.

علاوة على ما سبق، فإنّ أي تغيير سيحدث على مستوى الحالة المادية سيؤدّي إلى ظهور وحدات جديدة على محور الغياب (حذاء ذو نعل قوي، حذاء ثمين، حذاء من ماركة مشهورة...) أي أن يرتدي رجال الدين أحذية بنعال قوية بدل ارتدائهم لأحذية بنعال خفيفة كمظهر من مظاهر تحسّن حالتهم المادية. وهذا ما لم يحدث في الواقع، حيث استنتج بوارو أنّ البصمة على الحائط ليست لرجال الدين وإنّما لرئيس مفتشي الشرطة، الذي يرتدي حذاء ثميناً ذي نعل قوي يتناسب وحالته الاجتماعية فهو "الرجل الذي يتقاضى أجراً سخياً كي يحفظ الأمن في القدس" -يقول هيركيول بوارو-، لينتج الحذاء ذو النعل القوي خطاباً يدين مرتديه ويثبت عليه تهمة السرقة. وقد اعتمد بوارو في تحليله على ثنائية (الفقر والغنى) التي كشف بها عن علاقة التناقض التي جمعت الحذاء ذي النعل الخفيف كأحد علامات الفقر، بالغنى الذي يعدّ ارتداء حذاء بنعل قويّ إحدى علاماته وهي نتيجة حتمية لسرقة تحفة أثرية ثمينة.

ويمكن توضيح الفكرة وفقا لمربع غريماس Griemas إذ يكشف لنا الخطاب الذي ولّده اللباس جملة من التقابلات الدلالية التي تركز على الثنائية (الفقر، الغنى) والتي تجسّدتها الوحدات (الحذاء ذو النعل الخفيف، الحذاء ذو النعل القوي) حيث يقتضي ارتداء حذاء ذي نعل خفيف كون المتكلّم (المرتدي) بحالة من اللاغنى، ففي الغالب من غير المعقول أن يكون الإنسان غنياً وينتعل حذاء خفيف النعل، بينما قد يكون مجبرا على فعل ذلك إذا ما كان فقيرا أو متوسط الدّخل.

وعلى العكس من ذلك، يقتضي ارتداء حذاء ذي نعل خفيف كون المتكلّم (المرتدي) بحالة من اللافقر، فمن غير المعقول أيضا أن ينتعل الفقير حذاء قويّ النعل، بينما سيفعل ذلك إذا كان غنياً أو متوسط الدّخل أيضا.

وهذا ما جعل بوارو يبيّن استنتاجه على علاقة التناقض التي جمعت حالة الغنى المحتملة لرجال الدّين (كنتيجة لعملية السرقة) وعلامات الفقر والبساطة التي تتجسّد على مستوى اللباس (الأحذية).



وقد أسهمت معرفة **هيريكيول بوارو** بلغة اللباس والأنساق الثقافية والأخلاقية والاجتماعية التي تقبع خلفه في الكشف عن العديد من ملابسات **جريمة قطار الشرق السريع**، حيث استنتج أثناء عثوره على منديل مطرز كتب عليه حرف الهاء أو (h) أنه قد يكون لسيده أرستقراطية يبدأ اسمها بحرف الهاء علاقة بالجريمة؛ يقول **بوارو**: "ولدينا هنا منديل سيده، شيء فاخر مصنوع يدويا بمئتي فرانك في باريس". فقد شكّل المنديل حضورا لموضوع غائب وهو السيدة الثرية من الطبقة الراقية، وضمن هذا السياق عبارة منسوبة إلى **بوفون (Buffon)** ذكر فيها أنّ "الأسلوب هو الرجل ذاته" فأسلوب الكلام (اللباس) يحيلنا بنسبة كبيرة إلى هوية المتكلم (المرتدي) وإن كان غائبا، وإذا ما بحثنا عن النسق الثقافي والتاريخي للمنديل المطرز -في فرنسا على وجه أخص- فسنجد أنه في العصور الوسطى كان علامة تعبر عن الثراء الفاحش والاختلاف في المستوى الطبقي، وفي بداية الثورة الصناعية أصبح المنديل في فرنسا إحدى العلامات الأخلاقية بالنسبة للمظهر الخارجي، لينضم تدريجيا إلى عالم الأزياء وتمنح لكيفية استخدامه أو طريقة لفّه دلالات مختلفة، فبراعة **بوارو** في الحفر والتقيب عن الأنساق الذي تنتجها علامة المنديل، مكّنته الإمساك بأحد خيوط الجريمة. وواصل **بوارو** عملية التحقيق معتمدا تحليل لغة اللباس كقرينة مساعدة، فقد استنتج عبر تحليله لحقيبة البروفيسور **جيهارد هارد Gerhar Hardman** أنه رجل شرطة سابق وليس بروفيسورا مثلما يدّعي، وكذلك اكتشف عبر تحليله لثوب النوم الذهبي الخاص بالنبيلة **إيلينا Elena** أنه جزء من جملة وحدات على مستوى محور الاختيار تضم بينها الكيمونو الأحمر وهو ما كان يرتديه الشخص الغريب الذي شوهد وهو يلود بالفرار بعد وقوع الجريمة مباشرة.

2.1.3. العلامة اللغوية ودورها في كشف ملابسات الجريمة:

تعاملت النظرية السيميائية مع اللغة بوصفها علامة، فالوحدات والتراكيب اللغوية ليست سوى رموزا وضعت للنيابة عن مواضيع عدّة في عالمنا، لتحمل في دلالاتها العديد من المضامين الثقافية والسوسولوجية، هذه الخاصية الرمزية للغة جعلت منها ملاذا للغموض وتعدّد المعاني، ما خوّل للعلامة اللغوية أن تؤدّي دور مهمّا في فكّ شيفرات الجرائم وحلّ ألغازها.

وقد استعان هيركيرول بوارو بالعلامة اللغوية في حلّ لغز جريمة قطار الشرق السريع، ففي مشهد التحقيق مع خادم القتل راتيشيت تمكّن من إكتشاف كذبتة بخصوص حالته المرضية انطلاقا من تحليله لعبارة "إن كنت سأترك شيئا غير سار على وسادتك سيدي فلن يكون خطابا"، وهي عبارة وجهها الخادم لسيدّه راتيشيت حينما ساورت هذا الأخير شكوك بأنّه من يضع له خطابات التهديد تحت الوسادة.

حيث اعتمد بوارو في تحليل هذه العبارة على بعدها التداولي، مستعينا بعنصر السياق والظروف المحيطة بإنتاج الخطاب، للوصول إلى المعنى المضمر لهذه العلامة اللسانية، التي يمكن تصنيفها حسب تقسيم بيرس الثلاثي والخاص بالسيرورة الدلالية إلى علامة (عرفية، رمزية، تصديقية).

فالعلامة العرفية: علامة تنشأ بفعل التواضع والاتفاق²²، وهي في هذه الحالة اللغة

ممثلة في عبارة "إن كنت سأترك شيئا غير سار على وسادتك سيدي فلن يكون خطابا".

أمّا العلامة الرمزية: فهي العلامة التي تحيلنا إلى موضوع ما عبر ماثول²³ متواضع عليه وهو في هذه الحالة مدلول العبارة السابقة والتي تمثل جملة خبرية يفضي معناها إلى أنّ

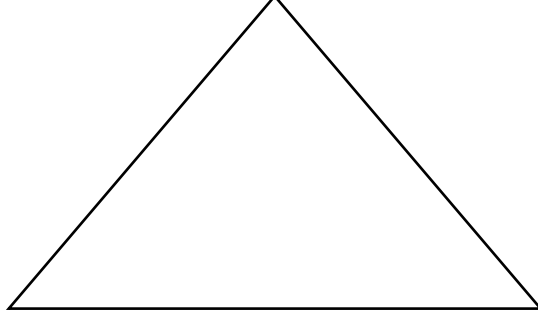
الخادم ينفي أنه من وضع خطابات التهديد تحت وسادة راتيشت، وأنه لو قام بوضع شيئا تحت وسادته سيكون شيئا آخر بدل الخطاب.

وبالنسبة للعلامة التصديقية: فهي العلامة التي يتطلب تأويلها الاستعانة بسياقاتها الخارجية²⁴، وبالتالي فسؤال من قبيل: هل أنت من تضع خطابات التهديد تحت وسادتي؟ يستلزم إجابتين: إمّا نعم أنا من يفعل ذلك، أو لا لست الفاعل، لأنّ الخطاب موجّه من الأدنى منزلة (الخادم) إلى الأعلى منزلة (السيد)، إلا أنّ الخادم خرق مسلمتين من مبدأ التعاون الجرايسي²⁵، أمّا الأولى فمسلمة الكم، حين أجابه بعبارة تفوق القدر المطلوب من السؤال، والثانية مسلمة الجهة عن طريق خرقه قاعدة "الابتعاد عن اللبس" بإجابة يشوبها قدر من الغموض، هذا الخرق لمسلمات الحوار جعل من الخطاب الذي حيّك بأسلوب خبري يتضمن تهديدا موجّها من الخادم إلى سيّده.

وقد استعان المحقق هيركيول بوارو في تحليل هذه العلامة بإحدى المقولات المقامية وهي وجوب ملائمة الخطاب لمنزلة المخاطب، حيث تخضع العملية التواصلية "لمناسبات القول والعلاقة بين المتكلم والمخاطب، ولا يتم التقاهم في أي لغة إلا إذا روعيت تلك المناسبات وأخذت العلاقة بين أصحابها بنظر الاعتبار"²⁶، ولأنّ الخادم قد خالف آداب التخاطب، فقد استنتج بوارو أن هذا الأخير-الخادم- مصاب بمرض قاتل وأنه يكذب حينما أخبره أن مرضه متعلق فقط بألم في الأسنان. فبالاستناد إلى الخطاب الذي وجّهه لسيده استنتج أنّ الخادم على يقين بأنّه لن يلتقي به مجدّدا، وهذا لأنّ أحدهما سوف يموت أو أن الآخر سوف يقتل، ما يعني أنه قد يكون على علاقة مباشرة بجريمة القتل. "بالتأكيد خادم عميق ودقيق لن يتحدث أبدا مع سيّده كما فعلت إلا إذا كان يعلم أنّ حياته المهنية ستذهب إلى نهاية مفاجئة، لا أعتقد أنه مجرد ألم في الأسنان"-يقول هيركيول بوارو-، ويوضح الرسم الآتي ما ذكر آنفا:

علامة عرفية

(إن كنت سأترك شيئا على وسادتك فلن يكون خطابا)



علامة تصديقية

علامة رمزية

(جملة خبرية تتضمن إجابة عن سؤال) (خبر يتضمن تهديدا ووعدا)

إضافة إلى ما سبق ذكره، هنالك العديد من المحطات التي اعتمد فيها بوارو على تحليل العلامة اللغوية، فقد حلل الخطاب التهديدي "كما الدماء القوية على يديك ستموت" الذي يتضمن مجازا لغويا (كناية عن ارتكاب جريمة قتل شنيعة)، استنتج على إثره أنّ القاتل ارتكب جريمة بدافع الانتقام؛ أي أنه أحد ضحايا القتل، كما قام بتحليل خطاب المباشرة التي اكتشف من خلال عبارة "أحيانا ينشغل الرب" أنها لا تثق كثيرا في العدالة الإلهية، ما يعني أنها يمكن أن تسعى للاقتصاص لنفسها بنفسها إذا ما أصيبت بأذى، ما لا يجعلها بعيدة عن الشبهات.

3.1.3. دور لغة الجسد في فك لغز الجريمة:

اهتمّت النظرية السيميائية بتحليل الإشارات والإيماءات الجسدية بوصفها لغة لها تساقها وانسجامها وسياقاتها التي تضبط دلالاتها، وعلى الرغم من أنّ "لغة الجسد هي انعكاس ظاهري لحالة الشخص العاطفية"²⁷، إلا أنّها نتاج جملة من التسنينات الثقافية التي تعكس تأثيره وتأثره بالمجتمع الذي ينتمي إليه ويتواصل فيه.

وتتخذ الإشارة الجسدية شكل العلامة الرمزية عندما تصدر من المخاطب بصورة قصدية لأجل تحقيق أغراض تواصلية، كإشارات التحية والسلام، والابتسام وهزّ الرأس كعلامة على الموافقة، وكذلك الإيماءات المتفق عليها بين أفراد مختلف المنظمات...وما إلى ذلك، كما قد تتخذ شكل العلامة الإشارية وذلك حين تحكم السببية علاقة الماثول بموضوعه، كالحمرة علامة على الخجل والتوتر، والدخان علامة على وجود النار، والحركات الجسدية التي تصدر بصفة لا إرادية أثناء عملية التخاطب.

وتوجد الكثير من الجرائم التي أثبتت أهمية الاستفادة من العلامات الجسدية في التحقيقات الجنائية ففي مشهد التحقيق مع المبشرة ركّز هيركيول بوارو إنتباهه على حركاتها الجسدية حين قامت بضمّ يديها عندما أخبرها بأنها آخر من شاهد راتشيت قبل أن يقتل، حيث تصنّف هذه العلامة في خانة العلامة (الإشارية، النوعية، البرهانية)²⁸، التي صدرت بصورة طبيعية غير قصدية، لتعبّر وتصف شعور المبشرة بالتوتر والرغبة في الدفاع عن النفس، ولأنّ العلامات الجسدية لا تؤوّل بمعزل عن باقي العلامات التي تنتمي إلى النسق الدال نفسه، أو بمعزل عن السياق الذي أنتجها، فقد صدرت هذه العلامة بعد جملة من الإشارات الجسدية كحركة العينين المفاجئة، وإمالة الرأس وعدم استخدام اليدين في الحديث طيلة فترة الاستجواب، حيث شكّلت هذه الإشارات -إضافة إلى علامة ضمّ اليدين- نسيجا نصيا يحمل دلالات التوتر وعدم الراحة تجاه الخطاب والمخاطب.

وللإشارة اليدوية دور هامّ في عملية التواصل، لأنّ الناس يميلون إلى تحريك أيديهم بكثرة إذا كان ما يقولونه صادقا، حتى أنّ العديد من الساسة والمؤثرين يستعينون بها لإثبات صدق أقوالهم، فكلّما كانت راحة اليد مبسوطة أثناء الخطاب دلّ هذا على الراحة النفسية للمخاطب وثقته بما يقول وهذا ما يجعله يبدو صادقا ومصدر ثقة أمام جمهوره، وكلّما كانت اليدين مضمومة على شكل قبضة -كما فعلت المبشرة- دلّ هذا على التوتر وانعدام الأمان،

والعدائية واتخاذ وضعية الدفاع²⁹، وهذا ما انتبه إليه بوارو وجعله يتقن إلى صلابة يديها وهي علامة جسدية أخرى أدرك من خلالها أنها تمارس رياضة الفنون القتالية لتحمي نفسها أثناء عملها في المدن الخطيرة، ما اعتبره دليلا آخر على عدم ثقته في عدالة "الرّب" وهذا يتنافى وطبيعة عملها كمبشرة، ويضعها موضع شبهة بالنسبة إليه. كما أسهمت أيضا الإشارات الجسدية لسكرتير راتشيت (حركات عينيه المفاجئة، وتجنب النظر إلى بوارو أثناء إجابته على بعض الأسئلة، ووضع يديه في جيب سرواله...) في إثارة الكثير من الشكوك حول مدى صحة وصدق اعترافاته أثناء عملية الاستجواب.

وهكذا تمكن هيركيول بوارو عبر تحليله لمجموعة من العلامات والرموز والبحث عن الأنساق المنتجة لها، ومن ثم الربط بين هذه العلامات، أن يتوصل إلى فكرة مفادها أنّ جميع ركّاب قطار الشرق السريع يحاولون خداعه بنية إخفاء شيء ما.

فضلا عن ذلك، فقد أسهم لجوؤه إلى الجرائد القديمة والاطلاع على حيثيات وتفاصيل جريمة ديزي آرمسترونغ في تمكينه من حلّ لغز هذه الجريمة التي شارك جميع ركاب قطار الشرق السريع في ارتكابها. وقد تدعم هذه الجزئية فكرة المحاكاة التي وضعها مارسيل دانيسي ضمن ما اصطلح عليه بالسيمائية الجنائية من الدرجة الثانية، فمن الممكن أن يُسهم عرض تفاصيل الجريمة على شاشات التلفاز وجرائد الأخبار في حلّ ألغازها والتقليل من حدوثها، كما قد يُسهم في نشرها، بيد أنّ هذه الفكرة لا تبدو واضحة لأنها لم تتطرق بوضوح إلى دور التحليل السيميائي في حلّ ألغاز الجريمة انطلاقا من فكرة المحاكاة. فهل يقصد دانيسي أن الجريمة على شاشة التلفاز قد تستحيل علامة أيقونية تشير إلى هوية مرتكبها؟

الخاتمة:

نخلص في ختام هذه الورقة البحثية إلى أنّ الدور الذي تؤديه العلامة -على تنوعها- في الكشف عن حيثيات وملابسات الجريمة، يخوّل للنظرية السيميائية بشتى مقارباتها وأدواتها الولوج إلى الميدان الجنائي، عبر تحليل مختلف الأدلة الإشارية بما يتناسب وكيفية تجلّي كلّ دليل، فكلّ شكل من أشكال العلامة يقتضي تحليله إستعارة أدوات تحليل سيميائية تتوافق وطبيعته.

وما يعزّز أيضا من حظوظ المقاربة السيميائية في اقتحام الميدان الجنائي هو ذلك التشابه بين عملية التحقيق والتحليل السيميائي، فكلاهما يعتمد على تفسير وتأويل الأدلة والقرائن للوصول إلى حقيقة المواضيع التي تضمهرها.

كما نستنتج من خلال التحليل السيميوجنائي لفيلم جريمة في قطار الشرق السريع أنّ محاولة مارسيل دانيسي في السيميائيات الجنائية -وهي الوحيدة في هذا المجال- صالحة إلى حدّ بعيد للتطبيق الميداني وخاصة في جزئها الأول المتعلّق بما اصطلح عليه السيميائية الجنائية من الدرجة الأولى، أمّا بالنسبة للسيميائية الجنائية من الدرجة الثانية فعلى الرغم من التجسد الفعلي لفكرة المحاكاة، فإنّ العلاقة بينها وبين استخدام المنهج السيميائي في تحليل الجرائم لا تبدو واضحة بعد.

لكنه وعلى الرغم من شُح الدراسات والأبحاث في ميدان السيميائيات الجنائية، على الصعيدين النظري والإجرائي معا، فالمنتبّع لقصص الجريمة والتحقيق واقعية كانت أو خيالية، سيلاحظ أنّ استثمار أدوات التحليل السيميائي في الميدان الجنائي يتمّ بشكل أو بآخر في العديد من عمليات التحقيق والإثبات الجنائي وإن لم يصرّح به تحت مسمّى "سيميولوجيا الجناية".

وقد خلصت دراستنا إلى جملة من التوصيات نوجزها في الآتي:

- الاهتمام باللسانيات الجنائية باعتبارها التخصص الذي يشمل كلّ ما يجمع علوم اللغة بالميدان الجنائي بما في ذلك السيميائيات الجنائية.
- فتح تخصص السيميائيات الجنائية في الجامعات لطلبة اللسانيات والحقوق على حدّ السواء.
- تكتيف المؤتمرات والملتقيات والورشات العلميّة التي تعالج قضية العلاقة بين الميدانين السيميائي والجنائي.
- العمل على تكوين خبراء سيميوجنائيين للاستعانة بهم في تحليل القضايا التي تؤدّي العلامات دورا في حياكة تفاصيلها، أو على مستوى غرف الاستجواب وأثناء المواجهة بين المتّهمين.
- إنشاء ورشات علمية مشتركة لتعزيز التبادل المعرفي وتبادل الخبرات بين اللغويين والقانونيين.

الهوامش:

¹ - حافظ إسماعيل علوي، لغات القانون، ترجمات مختارة، المملكة الأردنية دار كنوز المعرفة، 2020، ص45.

² - ينظر: صالح بن فهد العصيمي، اللسانيات الجنائية، تعريفها ومجالاتها وتطبيقاتها، السعودية، مركز الملك بن عبد العزيز الدولي، 2020، ص.130.

³-Ferdinand De Saussure, Cours de linguistique générale, France, Payot, 1971, p.35.

⁴- Marcel Danesi, Signs of Crime, Introducing Forensic Semiotics, Germany, De Gruyter Mouton, 2014, p.30.

⁵-محسن بوعزيزي، السيميولوجيا الاجتماعية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2010، ص.86.

⁶- Marcel Danesi, Signs of Crime, Introducing Forensic Semiotics, Op.cit., p.30.

⁷- Ibid., p.1.

⁸- محمد رمضان بارة، مبادئ علم الإجرام، ليبيا، مكتبة طرابلس العالمية للنشر والتوزيع، 2000، ص.32.

⁹-ينظر: جديبال fbi قراءة وشوم المجرمين، 03/جوان/2016، 15/جوان/2024 .

<https://www.alarabiya.net/technology>

¹⁰- Marcel Danesi, Signs of Crime, Introducing Forensic Semiotics, Op.cit., p.35.

¹¹-Ibid., p.30.

¹²-أمبارك بن مصطفى، اللسانيات القانونية، دراسة في المفهوم والمجال، مجلة العلوم القانونية والاجتماعية (المركز الجامعي الشريف بوشوشة، آفلو الأغواط)، المجلد:07، العدد4، 2022/12/01، ص02.

¹³-ينظر: عبد الحق بلعابد، السيميائيات القانونية، مجلة السيميائيات، (جامعة وهران)، المجلد: 01، العدد1، 2005/10/01، صص31-35.

¹⁴-حافظ إسماعيلي علوي، اللسانيات والقانون، بحوث وترجمات، المملكة الأردنية، دار كنوز المعرفة، 2020، ص.163.

¹⁵ - Renee Willmon, Behind Scenes of Tcak :Semiotics The service of Criminal Investigation,16march2014, 29/may/2024, <https://reneewillmon.wordpress.com>.

¹⁶ - Renee Willmon, Behind Scenes of Tcak :Semiotics The service of Criminal Investigation,16march2014, 30/may/2024, <https://reneewillmon.wordpress.com..>

¹⁷- Marcel Danesi, Signs of Crime, Introducing Forensic Semiotics, op.cit., p.27.

¹⁸- Ibid., p.27.

¹⁹ -حنون أمبارك، دروس في السيميائيات، المغرب، دار توبقال للنشر، 1987، ص.76.

²⁰ -رولان بارث، مبادئ في علم الأدلة، تر: محمد البكري، سورية، دار الحوار للنشر والتوزيع، 1987، ص53.

²¹ -المرجع نفسه، ص51.

²² -ينظر: نظرية بيرس للعلامة، ترجمة: ناصر الحلواني، موسوعة ستانفورد للفلسفة، صص16-17، <https://hekma.org>

²³ - ينظر:المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

²⁴ - ينظر:المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

²⁵ -حاول بول غرايس الوصول إلى المبادئ الأساسية التي تحكم المحادثات والحوارات اليومية وتخلق التفاهم بين المتخاطبين وقد رأى أنّ هذا التفاهم بين طرفي الخطاب إنّما ينجم عن إتباع جملة من القواعد الضمنية التي أطلق عليها مبدأ التعاون، والذي يضمّ أربع مسلمات (مسلمة القدر، ومسلمة الجهة، ومسلمة الكيف، ومسلمة الملائمة) وتشكّل هذه المسلمات جملة القواعد التي ينبغي على المتخاطبين مراعاتها، إلّا أنّ

الغاية من تحديدها تكمن في أنّ المتكلم إذا قام بخرق إحداها سينتج ما أطلق عليه غرايس "الاستلزام الحواري" الذي يجعل من غيابها حضوراً آخر قد يحمل دلالة أكثر قوة في الكثير من الأحيان. ينظر: جاك موشار وأن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، تر: مجموعة من الأساتذة والباحثين، تونس، دار ديسترا سينيترا، 2010، ص.213.

²⁶ -مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، لبنان، دار الرائد العربي، 1986، ص.255.

²⁷ -آلان وباربرا بيبز، المرجع الأكيد في لغة الجسد، ترجمة: إيمان سعودي، المملكة العربية السعودية، مكتبة جرير، 2008، ص.11.

²⁸ -ينظر: ناصر الحلواني، مرجع سابق، الصفحة نفسها.

²⁹ -ينظر: آلان وباربرا بيبز، مرجع سابق، صص36-37.

قائمة المراجع:

- الكتب:

- بارة محمد رمضان، مبادئ علم الإجرام، ليبيا، مكتبة طرابلس العالمية للنشر والتوزيع، 2000.
- بارث رولان، مبادئ في علم الأدلة، تر: محمد البكري، سورية، دار الحوار للنشر والتوزيع، 1987.
- بوعزيزي محسن، السيميولوجيا الاجتماعية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2010.
- بيبز آلان وباربرا، المرجع الأكيد في لغة الجسد، ترجمة: إيمان سعودي، المملكة العربية السعودية، مكتبة جرير، 2008.
- حنون أمبارك، دروس في السيميائيات، المغرب، دار توبقال للنشر، 1987.
- علوي حافظ إسماعيلي، لغات القانون، ترجمات مختارة، المملكة الأردنية، دار كنوز المعرفة، 2020.
- علوي حافظ إسماعيلي، اللسانيات والقانون، بحوث وترجمات، المملكة الأردنية دار كنوز المعرفة، 2020.
- العصيمي صالح بن فهد، اللسانيات الجنائية، تعريفها ومجالاتها وتطبيقاتها، السعودية، مركز الملك بن عبد العزيز الدولي، 2020.
- المخزومي مهدي، في النحو العربي نقد وتوجيه، لبنان، دار الرائد العربي، 1986.
- Ferdinand De Saussure, Cours de linguistique générale, France, Payot, 1971 .
- Marcel Danesi, Signs of Crime, Introducing Forensic Semiotics, Germany , De Gruyter, 2014.

-الدوريات:

- بلعابد عبد الحق، السيميائيات القانونية، مجلة السيميائيات (جامعة وهران)، المجلد: 01، العدد1، 2005/10/01، صص.27-43.

<https://www.asjp.cerist.dz/en/article/29103>

- بن مصطفى أمبارك، اللسانيات القانونية، دراسة في المفهوم والمجال، مجلة العلوم القانونية والاجتماعي (المركز الجامعي الشريف بوشوشة، آفلو الأغواط)، المجلد: 07، العدد4، 2022/12/01، صص.480-492.

<https://www.asjp.cerist.dz/en/article/205886>

الموسوعات الإلكترونية:

- نظرية بيرس للعلامة، ترجمة: ناصر الحلواني، موسوعة ستانفورد للفلسفة، 2022، صص16-17، <https://hekmah.org>

المواقع الإلكترونية:

- جديال fbi قراءة وشوم المجرمين، 03/جوان/2016، 15/جوان/2024 .

<https://www.alarabiya.net/technology>

- Willmon Renee, Behind Scenes of Tcak : Semiotics The Service of Criminal Investigation,16march2014, 29/may/2024. <https://reneewillmon.wordpress.com>.

-Bibliography:

Books :

-Alawi Hafez Ismaili, Languages of Law, Selected Translations, Jordan, Dar Konooz-Al-Marifa, 2020. (In Arabic)

-Alawi Hafez Ismaili, Linguistics and Law, Research and Translations, Jordan, Dar Konooz-Al-Marifa, 2020. (In Arabic)

- Al-Makhzoumi Mahdi, in Arabic Grammar, Criticism and Guidance, Lebanon, Dar Al-Raed Al-Arabi,1986. (In Arabic)

- Al-Usaimi Salah Ibn Fahd, Forensic Linguistics: Definitions, Feilds , and Applications, Saudi Arabia, The King Abdullah Bin Abdulaziz International Centre, 2020. (In Arabic)

- Bara Muhammad Ramadan, Principles in Criminology, Libya, Tripoli International Library for Publishing and Distribution, 2000. (In Arabic)

- Barthes Roland, Elements in Semiotics, Translated by Muhammad Al-Bakri, syria, Dar Al-Hiwar for Publishing and Distribution,1987. (In Arabic)

- Bouazizi Mohsin, Social Semiology, Beirut, Centre for Arab Unity Studies, 2010. (In Arabic)

- Danesi Marcel , Signs of Crime, Introducing Forensic Semiotics, Germany , De Gruyter Mouton, 2014.

- De Saussure Ferdinand, Cours de linguistique générale, France, Payot,1971.

-Hanun Mubarak, Lessons in Semiotics, Morocco, Toubkal Publishing House,1987. (In Arabic)

-Pease Allan and Babara, The Definitive Reference in Body Language, Translated by Iman Saoudi, UKS, Jarir bookstore, 2008. (In Arabic)

-Periodicals :

- Belabed Abdelhak, Legal Semiotics, Semiotics Journal, Oran University, Vol.1, N°1, 01/10/2005, PP.27-43. (In Arabic)

<https://www.asjp.cerist.dz/en/article/29103>

- Ben Mustafa Embarak, Legal Linguistics, Studing Concept and Space, Legal and Social Sciences Journal, University Center Aflou Aghouat, El Cherif Bouchoucha, Vol.07, N°4, 01/12/2022, PP.480-492. (In Arabic)

<https://www.asjp.cerist.dz/en/article/205886>

- Websites:

- Al-Halwani Nassir, Peirces Theory of Sign, ,Stanford Encyclopeida of Philosophy, Egypt, PP.16-17. <https://hekmah.org>. (In Arabic)

- Willmon Renee, Behind Scenes of Tcak : Semiotics The Service of Criminal Investigation,16march2014, 29/may/2024. <https://reneewillmon.wordpress.com>.

-New fbi, Reading Tattos of Criminals , june3,2016,june15,2024,

<https://www.alarabiya.net/technology>.